سلسلة رسائل الفضيلة ٢٢



المتاجر الرابحة



إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر





إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر



الطبعة الأولى لدار الفضيلة

(1436هـ ـ 2015م)

رقم الإيداع: 1920 ـ 2015

ردمك: 5 ـ 029 ـ 58 ـ 9947 ـ 978

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

العنوان: التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44) عين النعجة ـ الجزائر

هاتف وفاكس: 38 56 57 021

النقال: 92 99 06 0559

التوزيع: 08 53 62 0661

البريد الإلكتروني: darelfadhila@hotmail.com

موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه؛ صلَّى اللهُ وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعدُ:

فإنَّ التِّجارةَ والاتِّجارَ وتحصيلَ الأرباحِ والتَّنافُسَ في نيلِ المكاسب مَطمَعُ كلِّ إنسان، ورغبةُ كلِّ عبدٍ، وكلُّ أحدٍ في هذه الدُّنيا بائعٌ مُشترٍ مُتَّجِرٌ، وكلُّ النَّاسِ يغدُو فبائعٌ نفسَه فمُعتِقُها أو مُوبِقُها، لكنَّ التِّجارةَ الرَّابحةَ والغنيمةَ الواضحةَ الباقي نفعُها في دنيا العبد وآخرتِه يَغفُلُ عن التَّنافُسِ فيها والسَّعيِ في تحصيلِها كثيرٌ من النَّاس، وفي هذه الرِّسالة

«**المتاجر الرَّابحة**» حديثٌ عن هذه التِّجارةِ؛ تجارةِ الآخرة بالأعمال الصَّالحة، فالصَّلاةُ مَتْجَرٌ، والصِّيامُ مَتجَرٌ، والصَّدقةُ مَتجَرٌ، وكلُّ عملٍ صالحٍ يَتقَرَّبُ به العبدُ إلى الله فهو من هذه المتاجر الرَّابحة، وكما أنَّ في التِّجارةِ الرِّبحَ والخسرانَ، فكذلك هذه التِّجارةُ، فمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحًا فله الأجرُ العظيم، ومَنْ أَعَرضَ عن الإيمان والعملِ الصَّالحِ فله الخُسرانُ المُبين.



مكانة العمل الصَّالح
ومنزلتُه العَلِيَّة

في القرآن الكريم أكثر مِن ثمانين آية ذُكِرَ فيها العملُ الصَّالح، قُرِنَ في ثلاثٍ وسبعين آيةً منها بالإيمان، وهذا العدد الكبير لذكر العَمل الصَّالح مقرونًا بالإيمان مُرتِّبًا على ذلك ذكر الثَّواب والأجر مِن فوزٍ بمغفرة الله ﷻ ونيلٍ لرضاه، وسعادةٍ في الدُّنيا والآخرة، وهناءة عيشٍ، ونيلٍ للغفران والرَّحمة إلى غير ذلك مِن أنواع الثِّمار والآثار الَّتي ينالها المؤمنون الَّذين يعملون الصَّالحات يدلُّ دلالةً بيِّنَةً على مكانة العمل الصَّالح ومنزلته العليَّةِ، ويزيد من إقبال العبد المؤمن على العمل الصَّالح؛ لأنَّه كُلَّما وقف المسلمُ على هذه

الفوائد والثِّمار والآثار زاد حِرصُه وعَظُمَتْ رَغبَتُه، وإذا غفل عن ذلك ضعُف وشُغِل بتوافِه الأمور وحقيرِ الأشياء، وإنِ استمرَّ على ذلك إلى أن تنقضي حياتُه ندم حيث لا يفيد النَّدمُ.

وفي هذه الآيات الَّتي قُرِنَ فيها الإيمانُ بالعمل الصَّالح دلالةٌ على التَّلازم بينهما، وأنَّ الإيمانَ اشتُرِطَ فيه العملُ الصَّالح، وكذلك العمل الصَّالح اشتُرِطَ فيه الإيمان؛ كقوله ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ]، وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]، وقوله ﷯: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ].

وكذلك اشتُرِط للإيمان العملُ الصَّالحُ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [سُورَةُ طه]،

وآيات كثيرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

فإذا كانَ عند الإنسان عملٌ صالحٌ وليسَ في قلبه اعتقادٌ حقٌّ وإيمانٌ صحيحٌ؛ لا ينفَعُه عمَلُه، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ]، وإذا كان عند الإنسان إيمانٌ ولكنَّه لا يعملُ شيئًا وليس عنده أيُّ عملٍ؛ فهذا أيضًا ليس من أهل الإسلام؛ لأنَّ أهلَ الإسلام والإيمان هُم الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات؛ أمران متلازمان: إيمانٌ وعملٌ، إقرارٌ تنطوي عليه القلوب يُثمِرُ أعمالًا تَظهَرُ على الجوارح، كما قال ﷺ: **«أَلَا وإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمان ابن بشير رضي الله عنهما.

ثمرة العمل الصَّالح وآثاره

والعمل الصَّالحُ ثمارُه وآثارُه على العبد في دُنياه وأُخراه كثيرةٌ جدًّا، ولْيَعْلَمِ المرءُ أنَّ هذه الدُّنيا بما فيها من مُتَعٍ، وما فيها من أنواعِ المنافع، وما فيها كذلك من نَسْلٍ، وما فيها من تجاراتٍ لن يَدخُلَ مع الإنسان إذا غادر هذه الحياةَ وأُدرِجَ في القَبر من ذلك شيءٌ، بل لن يَدخُلَ مع الإنسان في قبره إلَّا عملُه ـ صالحًا كان أو سيِّئًا ـ، وقد جاء في «الصَّحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ ويَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ ومَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ»**(١)، ومعنى يبقى عمله: أي يدخل معه في قبره.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٦٩٦٠).

أمَّا ولدُ الإنسان فلا يدخُل معه في قبره ولو كان يُحب والده ويُكِنُّ له عظيمَ المودَّةِ، ومالُ الإنسان مهما كَثُرَ وتنوَّع لن يَدخُلَ مع الإنسان في قبره، ولهذا جاء في حديث آخر رواه البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي هريرة ﵁ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَمَالِهِ وَعَمَلِهِ مَثَلُ رَجُلٍ لَهُ ثَلَاثَةُ أَخِلَّاءَ، قَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: أَنَا مَعَكَ مَا دُمْتَ حَيًّا، فَإِذَا مُتُّ فَلَسْتَ مِنِّي وَلَا أَنَا مِنْكَ، فَذَلِكَ مَالُهُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا مَعَكَ، فَإِذَا بَلَغْتَ إِلَى قَبْرِكَ فَلَسْتَ مِنِّي وَلَسْتُ لَكَ، فَذَلِكَ وَلَدُهُ، وقَالَ الآخَرُ: أَنَا مَعَكَ حَيًّا وَمَيِّتًا فَذَلِكَ عَمَلُهُ**»(١)، ولهذا نقل ابنُ القيِّم ﵀ في «روضة المُحِبِّين» عن أحد الحُكَماءِ أنَّه سُئِلَ: «أيُّ الأصحاب أَبَرُّ؟ قال: «العَمل الصَّالح»»؛ فالعمل الصَّالح صاحبٌ بارٌّ بصاحبه، وانظُرْ هذا البِرَّ في أَحْلَكِ الأحوال وأَشَدِّها وأَعْظَمِها عندما يُدرَجُ الإنسانُ في قَبرِه؛ ففي «مسند الإمام أحمد» عن البراء ابن عازب

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٩٣)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (٢٤٨١).

رضي الله عنه في سياقٍ طويلٍ، وفيه: «**وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بالخَيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ**»، وجاء في «الصَّحيح» عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «**إِذَا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ، فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي، قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟**»[1].

فهذا وغيرُه ممَّا يدلُّ على المكانة العَظيمة للعَمل الصَّالح وأنَّ من يُوَفِّقُهُمُ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ للأعمال الصَّالحات هم أهلُ التِّجارةِ الرَّابحةِ والغَنيمةِ الواضحةِ، ومَنْ سواهم من كافِرٍ أو مُفرِّطٍ فإنَّه سَيندَمُ ندَمًا عظيمًا ولن يُفيدَهُ ندَمُه، ولهذا؛ فإنَّ الكيِّسَ مِنْ عبادِ الله عز وجل مَن دانَ نفسَه وعمِلَ لما بعدَ الموتِ، والعاجز مَنْ أَتْبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأمانيَّ، وفي هذا

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وصحَّحه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٥٩).

المعنى يقول عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: «ارْتحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، ولِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، ولاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ ولاَ حِسَابَ، وغَدًا حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ»[1] و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾؛ فإنَّ هذه هي التِّجارةُ الرَّابحةُ، لا العمل للدُّنيا الزَّائلة؛ فإنَّها صفقةٌ خاسرةٌ؛ فنَعِيمُها مُنقَطِعٌ، وخيرُها زائلٌ، وصاحبها عن قريبٍ منها راحلٌ.

ولْيَحْذَرِ العبدُ من أن يكون من أهل هذه الصَّفقةِ الخاسرةِ، وقد ضرب العلماءُ لذلك مثلًا ـ كما ذكر الإمام الشَّنقيطي رحمه الله ـ «قالوا: إنَّ كلَّ إنسانٍ مُعَمَّرٍ أعطاه اللهُ ـ جلَّ وعلا ـ رأسَ مالٍ، ورأسُ هذا المال هو الجواهر الَّتي لا يَزِنُها في الدُّنيا شيءٌ، ولا يقوم مقامَها شيءٌ، وهي رأسُ مالِ كلِّ إنسانٍ، ونعني بهذه الجواهر: ساعاتِ العُمُرِ وأَيَّامَه؛ لأنَّ رأسَ مالِ الإنسانِ هو ساعاتُ عُمُرِه

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب الرِّقاق، باب الأمل وطوله، قبل حديث (٦٤١٧).

وأَيَّامِه، وهذا هو أَنْفَسُ شيءٍ وأَعظَمُ شيءٍ يُعطَى للإنسان، وهو رأسُ ماله، وكما أنَّ اللهَ لَمَّا جَعلَه رأسَ ماله جعلَه أخا الرَّسول أيضًا في إقامة الحجَّةِ عليه به حيث قال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، فإذا كان الإنسانُ المُعمَّرُ ـ سواء عُمِّرَ تعميرًا طويلًا أو غيرَه ـ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، فإن كان هذا المُعمَّرُ حاذِقًا لَبِقًا يعرِفُ كيف يُحرِّكُ رؤوسَ الأموال، وكيف يَستَفِيدُ منها، حرَّكَ رأسَ هذا المال ـ أعني ساعات عمره وأَيَّامَه حرَّكها ـ فيما يُرضِي اللهَ، فراقَبَ اللَّحظَاتِ والأَيَّامَ واللَّيالي والدَّقائقَ والثَّواني لئلَّا يضيعَ شيءٌ منها في غيرِ طاعةِ الله، فنَظَرَ الأوقاتَ الَّتي تتوجَّهُ فيها أوامرُ من رَبِّه؛ كأوقات الصَّلاة، وأوقات الحجِّ، وغير ذلك من المطلوبات الَّتي لها أوقاتٌ تتوَجَّهُ عند وجودها؛ فقام لله بذلك أحسنَ قيامٍ، ثمَّ إنَّه في الأوقات الَّتي لا تتوَجَّه بها وظائفُ من ربِّ العالمين، وأوامرُ مُعيَّنةٌ، يكُفُّ شرَّه ويخافُ اللهَ ـ جلَّ وعلا ـ ويستكثرُ من الخير ما استطاع، فإذا حرَّكَ هذا رأسَ هذا المال هذا

التَّحريكَ العظيمَ وتجر مع ربِّ العالمين هذه التِّجارةَ الرَّابحةَ رَبِحَ منها مُلكًا لا يَنفَذُ، رَبِحَ منها الحُورَ العينَ والجنَّاتِ والوِلْدَان، ومجاورةَ ربٍّ غيرِ غَضْبَان، والنَّظرَ إلى وجهِ الله الكريم، وقد سمَّى اللهُ تحريكَ رأسِ هذا المال معه ـ جلَّ وعلا ـ على الوجه الَّذي ذكرنا؛ سمَّاه (بَيْعًا) وسمَّاه (شِرَاءً)، وسمَّاه (تِجَارَةً)، وسمَّاه (قَرْضًا)؛ لأنَّ صاحِبَه حرَّكَ رأسَ ماله ـ وهو أيَّامُ عُمُرِه ـ تحريكًا حَسَنًا لائقًا؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [سُورَةُ الصَّفِّ ١١]، فصرَّح بأنَّ ذلك تجارةٌ مع الله، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [سُورَةُ التَّوۡبَةِ]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥].

فإذا كانَ صاحبُ رأسِ هذا المال المسكين رجلًا أَحْمَقَ لا

يعرف حقائقَ الأشياء، ولم يَتنَوَّرْ باطنُه بنورِ الوحي، لم يَعرِفْ قيمةَ رأس هذا المال، ولا قَدَرَ هذه الجواهرَ الَّتي أعطاه اللهُ فضَيَّعَها في قال وقيل، ولم يكتسِبْ منها شيْئًا حتَّى يَنتَهِيَ الأجلُ المُحدَّدُ له فيُجَرَّ إلى القبرِ وهو صِفْرُ الكفَّيْن، والآخرةُ ـ أيها الإخوان ـ دارٌ لا تصلح للمفاليس، ولا تصلح للفقراء؛ لأنَّ ليس فيها إرفاق، ولا عارية، ولا صدقة، ولا خلَّة، ليس فيها للإنسان إلَّا ما قدَّمه من عمله، فلا ينبغي للإنسان أن يُقْدِمَ عليها مُفلِسًا، فيجب على المسلمين كلًّا أن يحترموا رأس هذا المال.

إذا كانَ رأسُ المال عُمرك فاحتَرز

عليه من الإنفاقِ في غير واجب»[1].

فلْيَغْتَنِمِ النَّاصحُ لنفسه ساعاتِ عُمرِه بالأعمال الصَّالحةِ الَّتي يَسُرُّه أن يلقى اللهَ بها غدًا، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [سُورَةُ الحَشۡرِ].

(١) «العذب النَّمير» (٤/ ٣٤١).



حقيقة العمل الصَّالح وبما يتحَقَّقُ

وفي هذا المقام ـ مقام الحديث عن العمل الصَّالح ـ يأتي سؤالٌ لابدَّ من بيانِه ألا وهو: ما هو العملُ الصَّالح؟ وبمَ يكون العمل صالحًا؟

والعملُ الصَّالِحُ: هو العملُ الَّذي يُحِبُّه اللهُ ﷻ ويُحِبُّهُ رسولُه ﷺ ممَّا أمرَ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ به أمرَ إيجابٍ أو أمرَ استحبابٍ.

وهذا ميدانٌ واسع وبابٌ رَحْبٌ، والأعمال الصَّالحاتُ القوليَّةُ والفعليَّةُ الظَّاهرةُ والباطنةُ كثيرةٌ، والميدان فيها ميدان تنافس، وفي هذا الميدان يتسابق المتسابقون ويتنافس المتنافسون ممَّن يرجون رحمةَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ والفوز بعظيم الثَّواب وجميلِ المآب.

ولا يكون العملُ صالحًا إلَّا بإخلاصٍ للمعبود ـ جلَّ في علاه ـ ومتابعةٍ للرَّسول ﷺ، فالإخلاصُ أساسُ العمل الصَّالحِ الَّذي عليه يُبنَى؛ فإنَّ الأعمالَ لو تَنوَّعَتْ وكَثُرَتْ وتعدَّدَتْ ولم تَقُمْ على الإخلاصِ لله لا يَنتَفِعُ بها العاملُ، وكذلك لو أنَّه أخلَصَ ولم يتَّبعْ في أعماله رسولَ الله ﷺ لم يَنتَفِعْ بها، فلا يكون الانتفاع بالأعمال إلَّا إذا أُخلِصَتْ لله ﷻ واتُّبِعَ فيها رسولُ الله ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [المُلك: ٢] ولا يكون العملُ بهذا الوصف إلَّا إذا قام على الإخلاص والمتابعة، قال الفُضَيْلُ بنُ عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الآية ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾: «أَخْلَصُه وأَصْوَبُه»، قيل: يا أبا عليٍّ! وما أخلَصُه وأصوَبُه؟ قال: «إنَّ العملَ إذا كان خالِصًا ولم يكنْ صوابًا لم يُقبَلْ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالِصًا لم يُقبَلْ حتَّى يكونَ خالِصًا صوابًا، والخالص ما كان لله، والصَّوابُ ما كان على السُّنَّة»[1].

(١) أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا في «الإخلاص والنِّيَّة» (٥٠ ـ ٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩).

والأعمالُ الصَّالحةُ الَّتي يُحِبُّها الله جَلَّ وَعَلَا وأمَرَ بها كثيرةٌ، لكن يأتي في الدَّرجةِ الأولى وفي صدر الأولويَّات في هذا الباب فرائضُ الإسلام وواجباتُ الدِّين، وهذا جانبٌ لابدَّ من التَّنبُّه له في باب العَمل الصَّالح والعناية به، جاء في الحديث القُدسي أنَّ اللهَ ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: «**مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»(١)؛ ففرائض الإسلام وواجباتُ الدِّين تأتي في المُقَدِّمةِ، فإذا قيل: أيُّ الأعمال أفضل وأيُّها أَحبُّ؟ يقال: الفرائضُ.

ولا يُقدَّمُ نفلٌ على فرضٍ؛ فبعض النَّاس لدَيْه عنايةٌ جيِّدَةٌ ببعض النَّوافل من بِرٍّ أو صلةٍ أو صدقةٍ أو حُسن معاملةٍ أو غير ذلك من الأعمال، لكنَّه تجدُه مُضَيِّعًا لفرائض عظيمة! بل تجده مُضَيِّعًا لأعظم فريضة بعد التَّوحيد ألا وهي الصَّلاةُ، والصَّلاةُ عمادُ الدِّين كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ، بل قال ﷺ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ»[1].

ففي باب العملِ الصَّالح تُقدَّمُ الفرائضُ، ومنْ شغَله فرضٌ عن نفل فهو معذورٌ، أمَّا من شغَله نفلٌ عن فرضٍ فهو مغرور، كيف يُشتَغلُ بالنَّوافل عن الفرائض! ولو أنَّ شخصًا سهر ليلَه قراءةً للقرآن، ثم يترتَّبُ على ذلك إضاعةٌ لصلاة الفجر فهو آثِمٌ في ذلك السَّهر؛ لأنَّ فيه إضاعةً للفرض، فكيف بمَن يسهر على معاصٍ وآثامٍ وأمورٍ تُسخط اللهَ تبارك وتعالى ثمَّ يُتبعُ ذلك بنومٍ وإضاعةٍ لصلاة الفَجر! أين مقامُ الأعمال الصَّالحات والعناية بها؟!

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦٥٧٦)، والدَّارمي في «سننه» (٢٧٦٣)، وابن حبَّان في «صحيحه» (١٤٦٧)، وقال الذَّهبي في «تنقيح التَّحقيق» (١/ ٣٠٠): «سنده جيِّد»، وقال ابنُ عبد الهادي أيضًا في «تنقيح التَّحقيق» (٢/ ٦١٤): «إسناد هذا الحديث جيِّد».

فإذًا الأعمال الصَّالحة تتفاضل، ويأتي في مقدمها فرائضُ الإسلام، ثمَّ من بعد الفرائضِ إن قيل أيُّ العملِ أفضل؟ يقال ـ كما ذكر ذلك شيخُ الإسلام وغيرُه من أهل العلم ـ ليس في ذلك جوابٌ مُفصَّلٌ إلَّا بحسب حال الإنسان ومَقامِه والوقتِ الَّذي هو فيه، لكن يمكن يقال قولًا جامعًا في هذا الباب وهو: أنَّ الأفضلَ في كلِّ وقتٍ الأَوْفَقُ للسُّنَّة في ذلك الوقت؛ وهذه قاعدةٌ ثمينةٌ في باب التَّفاضل بين الأعمال وأيِّها أفضَل.



تفاضل أهل الإيمان في العمل الصَّالح

وإذا كانت الأعمالُ في نفسها مُتَفَاضِلةً؛ فإنَّ أهلَ الإيمان في الأعمال متفاضِلون، لَيْسُوا على درجةٍ واحدةٍ بل بينَهم تفاوتٌ عظيمٌ وتباينٌ كبيرٌ، قال الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ].

«وهؤلاء كلُّهم مُستَعِدُّون للسَّيْر، مُوقِنُون بالرُّجْعَى إلى الله، ولكنْ متفاوِتُون في التَّزوُّدِ وتعبئةِ الزَّادِ واختيارِه وفي نفس السَّيْرِ وسُرعَتِه وبُطئِه، فالظَّالمُ لنفسِه مُقَصِّرٌ في الزَّاد غيرُ آخِذٍ منه

ما يُبَلِّغُه المَنزِلَ؛ لا في قَدرِه ولا في صفته، بل مُفَرِّطٌ في زاده الَّذي ينبغي له أن يتَزَوَّدَه، ومع ذلك فهو مُتزَوِّدٌ ما يتأذَّى به في طريقه ويجد غِبَّ أذاه إذا وصل المنزلَ بحسب ما تزوَّد من ذلك المُؤذِي الضَّارِّ، والمُقتَصِدُ اقتَصَرَ من الزَّادِ على ما يُبَلِّغُه ولم يَشُدَّ مع ذلك أحمالَ التِّجارةِ الرَّابحةِ ولم يَتزَوَّدْ ما يَضرُّه فهو سالِمٌ غانِمٌ لكن فاتته **المتاجرُ الرَّابحةُ** وأنواعُ المكاسب الفاخرةِ، والسَّابقُ بالخَيْرَاتِ همُّهُ في تحصيلِ الأرباح وشدِّ أحمالِ التِّجاراتِ؛ لعلمه بمقدارِ المربح الحاصل فيرى خسرانًا أنْ يَدَّخِرَ شيئًا ممَّا بِيَدِه ولا يَتَّجِرُ به فيجِدُ رِبحَه يومَ يَغتَبِطُ التُّجَّارُ بأرباحِ تجاراتِهم، فهو كرَجُلٍ قد عَلِمَ أنَّ أمامَه بلدةَ الدِّرهَمِ يكسبُ فيها عشرةً إلى سبعمائةٍ وأكثرَ وعنده حاصلٌ وله خبرةٌ بطريق ذلك البلد وخبرةٌ بالتِّجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكلِّ ما يملك حتَّى يُهَيِّءَ به تجارةً إلى ذلك البلد لفعل، فهكذا حال السَّابِقِ بالخيرات بإذن الله يرى خُسرَانًا بيِّنًا أن يَمُرَّ عليه وقتٌ في غير مَتْجَرٍ»[1].

---

(١) «طريق الهجرتين» لابن القَيِّم (ص٤٠٤ ـ ٤٠٥).

وقُدِّم في هذه الآيات الظَّالمُ لنفسِه لئَلَّا يَقْنَطَ، وأُخِّرَ السَّابِقُ بالخيرات لِئَلَّا يُصابَ بالعُجْبِ، وسَبْقُه بالخيرات فضلٌ تفضَّلَ اللهُ به عليه ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، واللهُ جل جلاله هو المُتَفضِّلُ والمانُّ ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ [النور: ٢١]؛ ولهذا ممَّا ينبغي أن يُفقَهَ في هذا المقام: أنَّ الأعمالَ الصَّالحاتِ والطَّاعاتِ الزَّاكياتِ لا يمكن أن يقومَ العبدُ بشيءٍ منها إلَّا إذا أعانه الله عز وجل ويسَّر له ذلك، قال النَّبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «**يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فقال له معاذ رضي الله عنه: بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ الله، وأنا أحِبُّكَ، قال: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

ومِمَّا يَجدُرُ بالمسلمِ أن يُلاحِظَهُ في هذا الباب ـ بابِ الأعمال الصَّالحات ـ أنْ يُبعِدَ عن نفسه الأمورَ الَّتي تكون

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وأحمد (٢٢١١٩، ٢٢١٢٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٣٦٢).

بها السَّآمةُ والمَلَلُ من العمل ومن ثَمَّ الانقطاع، وهذا يحصل لكثيرٍ من النَّاسِ، فقد جاء في «الصَّحيح» أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئِلَ: «**أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ: أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»[1]، فمَثَلًا: ركعتان تصلِّيهما كلَّ ليلةٍ خيرٌ لك وأعظمُ من أن تُصلِّيَ ليلةً صلواتٍ عديدةً أو ثلاثَ ليالي أو أربع أو خمس ثمَّ تترُكَ هذه الصَّلاةَ، وقد رَوَتْ أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: «دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ، وعندي امرأةٌ، فقال: «**مَنْ هَذِهِ؟**»، فقلتُ: امرأَةٌ لا تنامُ تُصَلِّي، قال: «**عَلَيْكُمْ مِنَ العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَ الله لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا**»، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»[2].

فلْيَأْتِ العبدُ من الأعمال والنَّوافل الشَّيءَ الَّذي يُطِيقُ، لكنَّ الفرائضَ يُلزِمُ نفسَه بها إِلزامًا؛ لأنَّه يُعاقَبُ على تَركِها، وأمَّا النَّوافلُ فلْيَأْخُذْ منها ما يُمكِنُه المداومةُ عليه وإن كان قليلًا،

(١) أخرجه مسلم (٧٨٢) من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).

فالأَحَبُّ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ من العمل الأَدْوَمُ وإن قَلَّ.

قال النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه الحثُّ على المداومة على العمل، وأنَّ قليلَه الدَّائمَ خَيْرٌ من كثيرٍ ينقَطِعُ، وإنَّما كان القليلُ الدَّائِمُ خيرًا من الكثيرِ المُنقَطِعِ؛ لأنَّ بدوام القليلِ تدومُ الطَّاعةُ والذِّكرُ والمراقبةُ والنِّيَّةُ والإخلاصُ والإقبالُ على الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ، ويُثمِرُ القليلُ الدَّائمُ بحيثُ يَزِيدُ على الكثيرِ المُنقَطِع أضعافًا كثيرةً».

إلا أنَّ الوردَ الذي ينبغي أن يحافظ عليه المسلم كلَّ يومٍ وليلةٍ فيما يتعلَّقُ بالصَّلاةِ أربعون ركعةً، كما قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر ورد النَّبيِّ ﷺ الدَّائم من الصَّلاة: «مَجْمُوعُ وِرْدِهِ الرَّاتِبِ باللَّيْل والنَّهار أربعينَ ركعةً كان يُحَافِظُ عليها دائِمًا سبعةَ عَشَرَ فَرْضًا وعَشْرُ ركَعَاتٍ أو ثِنْتَا عَشْرَةَ سُنَّةً راتبةً وإحدى عشرةَ أو ثلاثَ عشرةَ ركعةً قيامُهُ باللَّيلِ، والمجموعُ أربعُون ركعةً... فينبغي للعبدِ أن يواظِبَ على هذا الوردِ دائِمًا إلى المماتِ، فما أسرعَ الإجابةَ وأعْجَلَ فَتْحَ البابِ لمنْ يقرَعُه كلَّ يومٍ وليلةٍ أربعينَ مرَّةً».

فينبغي أن يحرص المسلم على هذه الأربعين وردًا يوميًا وأن لا يُنقص منها شيئًا، وإن حصلت الزِّيادةُ فهذا خيرٌ إلى خير.

وإذا فسحَ اللهُ لعبدٍ في عمرِه فعليه أن يذكُرَ أنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمرُه وحَسُنَ عَملُه، روى التِّرمذي وأحمد أَنَّ أعرابيًّا قال: يا رسول الله مَنْ خيرُ النَّاس؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»(١)، وأن يَذكُرَ قولَ النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ: «**وإِنَّمَا الأَعْمَالُ بالخَوَاتِيمِ**»، وفي روايةٍ: «**وإِنَّمَا الأَعْمَالُ بخَوَاتِيمِهَا**»(٢)؛ فيجتهد في الاستكثار من الطَّاعات والقيامِ بالأعمال الصَّالحاتِ والتَّوبةِ والإقبالِ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ، «دخل سليمان بنُ عبد الملك المسجدَ فرأى شيخًا كبيرًا فدعا به، فقال: يا شيخُ! أتُحِبُّ الموتَ؟ قال: لا، قال: بم؟ قال: ذهب الشَّبابُ وشَرُّه وجاءَ الكِبَرُ

(١) أخرجه التِّرمذي (٢٣٢٩، ٢٣٣٠)، وأحمد (١٧٦٨٠، ٢٠٤١٥)، وصحَّحه التِّرمذي، والألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٩٦، ٣٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٣، ٦٦٠٧) من حديث سهل بن سعد السَّاعدي رضي الله عنه.

وخَيرُه، فإذا قُمتُ قلتُ بسم الله، وإذا قعدتُّ قلتُ الحمدُ لله فأنا أحبُّ أن يبقَى لي هذا»[1].

وإن كان قد أَسْرَفَ على نفسِه وفرَّطَ فَلْيَتَدَارَكْ نفسَه، فماذا ينتظر في إسرافه وتفريطِه؟ أينتَظر أن يغادر هذه الحياةَ مُسرِفًا مُفرِّطًا؟!

قال الفُضَيْلُ بنُ عياض لرجل: «كم أَتَتْ عليك؟، قال: ستُّون سنةً، قال: فأنتَ منذ ستِّينَ سنةً تسير إلى ربِّكَ تُوشِكُ أنْ تَبلُغَ، فقال الرَّجلُ: يا أبا عليٍّ: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قال له الفُضَيْلُ: تعلَمُ ما تقول؟، قال الرَّجل: قُلْتُ: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قال الفُضيل: تعلمُ ما تفسيرُه؟ قال الرَّجُلُ: فسِّرْهُ لنا يا أبا عليٍّ، قال: قولك: إنَّا لله، تقول: أنا لله عبدٌ، وأنا إلى الله راجعٌ، فمَن علم أنَّه عبدُ الله وأنَّه إليه راجعٌ، فلْيَعْلَمْ بأنَّه موقوفٌ، ومَنْ عَلِمَ بأنَّه موقوفٌ، فلْيَعْلَمْ بأنَّه مسؤولٌ، ومَنْ عَلِمَ أنَّه مسؤولٌ، فلْيُعِدَّ للسُّؤال جوابًا، فقال

(١) رواه ابنُ أبي الدُّنيا في «العُمُر والشَّيب» (٢٩).

الرَّجلُ: فما الحيلةُ؟ قال: يسيرةٌ، قال: ما هيَ؟ قال: تُحسِنُ فيما بقي يُغفَرُ لكَ ما مضَى وما بَقِي؛ فإنَّكَ إن أسَأْتَ فيما بقي أُخِذْتَ بما مضَى وما بقي»[1]، وهذا مِمَّا يُوضِّحُ معنَى قوله ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ: «**وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بالخَوَاتِيم**»[2].

ثمَّ إذا وُفِّق الإنسانُ لشيءٍ من الأعمال قلَّتْ أو كَثُرَتْ فعليه أن لا يَغتَرَّ بأعمالِه حتَّى وإن كَثُرت وتعدَّدت، ولْيَذْكُرْ حالَ المؤمنين الَّذين ذكرَهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة المؤمنون قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾، وقد سألَتْ أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها النَّبيَّ ﷺ عن معنى هذه الآية قالت: «قلتُ: يا رسول الله! ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أهو الرَّجُلُ يَزنِي ويَسرِقُ ويشرَبُ الخمرَ؟ قال: «**لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٣، ٦٦٠٧) من حديث سهل بن سعد السَّاعدي رضي الله عنه.

وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ»[1]، ولهذا صحَّ في الحديث أنَّ نبيِّنَا ﷺ قال: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قالوا: ولا أنتَ؟ يا رسولَ الله قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»[2]، فعلى العبدِ أن لا يَغترَّ، بل يَحرِصُ على الإكثار من الأعمال الصَّالحات ويسألُ الله تبارك وتعالى القبولَ والرِّضا والتَّوفيقَ.

ثمَّ في هذا الباب ـ باب الأعمال الصَّالحة ـ لا يغِبْ عن المؤمن الحصيف العمُرُ الثَّاني للعبد بعد موته، وهذا جانبٌ في الأعمال لا يَفطنُ له إلَّا الموفَّقون من عباد الله؛ فيكون للواحد منهم عمُرًا آخر في باب الأعمال بعد الموت وهو العُمُرُ الثَّاني، وفي هذا يقول ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[3]، وقال في الحديث الآخر: «**سَبْعٌ يَجْرِي للعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا،**

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٧٠٥)، والتِّرمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَوْ كَرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»(١).

ومِن العجيب أنَّ ناسًا أمواتٌ في قبورهم تجري لهم الأجورُ كلَّ يومٍ ولَيْلَةٍ ويتضاعف الثَّواب! وآخرون يمشون على الأرض وتَمُرُّ اللَّيالي والأَيَّامُ والشُّهورُ ولا يُحَصِّلون أجرًا بل يحصِّلون إثمًا ووِزْرًا ـ والعياذ بالله ـ، فيا سبحان الله في هذا التَّفاوت والتَّباين! فأين الاعتبار؟! وأين الادِّكار؟!

وهذا مقامٌ ينبغي على الإنسان أن يُجَاهِدَ نفسَه على الفقه فيه ثمَّ يُجَاهِدَها على العمل حتَّى لا يأتي عليه يومٌ يَندَمُ ولا يَنفَعُه نَدمُه، ومَن فرَّط أو ضيَّع يندَمُ ندامةً شديدةً في مقاماتٍ عديدةٍ ولا ينفعُه النَّدمُ في تلك المقامات، ولهذا جاءت آياتٌ في القرآن الكريم فيها إشارةٌ إلى النَّدَمِ العظيمِ على التَّفريطِ في الإيمان والعَمل الصَّالح.

---

(١) أخرجه البزَّار في «مسنده» (٧٢٨٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠٢).

سواءً عند الموت كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [سُورَةُ المُؤمِنُونَ].

أو يوم النُّشور يندَم: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سُورَةُ إبرَاهِيمَ].

أو عند العرض على الجبَّار ـ سبحانه وتعالى ـ يندم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سُورَةُ السَّجدَةِ].

أو في النَّار إذا أُدخل يَندَمُ ندمًا عظيمًا، قال الله ﷻ عن الكفَّار: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا

لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ].

فهذه مقاماتٌ تكون فيها هذه النَّدامةُ لكنَّها لا تفيد، ولهذا العاقل يُعتَبر ما دام في دار العَمل، ويُصلح من حاله ويُصلح مِن أعماله ويُحاسِب نفسَه قبل أن يحاسِبَه اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ، وفي الحديث القُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[1].

أراد أحدُ السَّلف أن يَعِظَ رجلًا فأخذَه إلى المقابر، ولَمَّا وقفَ عند القُبور قالَ له: «لو كنتَ مكانَ هؤلاء ماذا تتمنَّى؟ قال: أتمنَّى أن يُعِيدَنِيَ اللهُ للحياة الدُّنيا لأعملَ صالحًا غيرَ الَّذي أعمَلُه، فقال له: أنت الآن فيما تتمَنَّاه»، أي أنتَ الآن في دار العَمل، والعاقِلُ يُحاسِبُ نفسَه قبل أن يحاسِبَه الله ﷻ، ويزِنُ أعمالَه قبل أن تُوزَنَ يوم لقاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ولْيَحْذَرِ العبدُ من الذُّنوب؛ فإنَّ «الذُّنوبَ تُنسِي العبدَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه.

حظَّهُ من هذه التِّجارةِ الرَّابحةِ، وتُشغِلُه بالتِّجارةِ الخاسرةِ، وكفى بذلك عقوبةً»[1]، نسأل الله العافيةَ.

وختامًا؛ فهذه إشاراتٌ يسيرةٌ حول هذا الموضوع، وهو موضوع واسعٌ وكبير، وأسأل الله ـ جلَّ في علاه ـ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يُوفِّقَنا أجمعين لما يُحِبُّه ويرضاه من سديدِ الأقوالِ وصالحِ الأعمال، وأن يُزيِّنَنا بزينة الإيمان، وأن يجعَلَنا هُدَاةً مُهتَدِين غيرَ ضَالِّين ولا مُضِلِّين.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على عبدِه ورسولِه نبيِّنا مُحمَّدٍ وآله وصحبِه أجمعين.



(١) «الجواب الكافي» لابن القيِّم (ص٢٤٨).